دولة الأمة المصغّرة والأسئلة المصيرية- حليم رزّوق

حليم رزّوق

عندما يقول سعادة عن الحزب إنه دولة الأمة المصغرة، ما هو المقصود بذلك؟ على قدر علمي واطلاعي على ما كتب في هذا الخصوص، كنا كقوميين نتكلم على هذا الأمر كما لو أن الحزب هو دولة الأمة فعلياً، أو لنقل إننا لم نولي هذا المفهوم الأساسي والجوهري حقه من الشرح والتفسير، ولكن عند التدقيق في الأمر نجد أن سعادة، الدقيق والعلمي في كل ما كتب، لم يقل إن الحزب هو دولة الأمة واكتفى بذلك، بل اردف انه دولة الأمة المصغرة. هذا يعني بوضوح، وبما لا يدع مجالاً للشك أو الالتباس، أن الحزب هو النموذج الذي ستكون عليه دولة الأمة السورية، دولتها القومية، أو هذا ما يجب أن يكون عليه الحال لو اخذت قضية النهضة مداها في الممارسة العملية كما أرادها سعاده. ولأن هذه الدولة العتيدة ستكون دولة العدل الاجتماعي والحقوقي، ولأنها ستكون دولة الاقتصاد القائم على الإنتاج وإنصاف العمل والعمال، ولأنها ستكون دولة المواطن، تقيم المساواة بين جميع المواطنين، ولأنها ستكون الدولة القوية التي تدافع عن حقها في الحياة والسيادة على كامل أراضيها، لذلك وجب على الحزب أن يتمثل هذه الأهداف عينها في آلية حركته في المجالات كافة من اقتصادية واجتماعية وثقافية وسياسية.

هذا الفهم لطبيعة الحزب بما هو دولة الأمة المصغرة يقودنا إلى أن عملنا لا يجب أن يقتصر على ما قمنا به حتى الآن من إقامة مؤسسات مركزية كالعمد والمجلس الأعلى والرئاسة، بل يقتضي منا التركيز على ما لم نوله حتى الآن العناية اللازمة. لقد أنشأنا المديريات في أحياء المدن وفي القرى كما أنشأنا المنفذيات في المدن والمناطق، ولكننا أغفلنا أمرا أساسيا مكملا لعمل هذه المؤسسات المحلية وهو الذي يعطيها دورها ويفعله، اي لجان المديريات ومجالس المنفذيات. إن المهمات المنوطة بهذه اللجان والمجالس في الدستور هي مهمات أساسية وضرورية لانتظام عمل الحزب ككل، كونها المعنية مباشرة بربط المواطن في المتحدات المختلفة بحزبه، اي دولته المصغرة. وهي بالتالي تؤسس لإقامة نموذج من الاقتصاد القومي الاجتماعي (التعاوني ربما أو غير ذلك من التسميات) القائم على الإنتاج والمنصف للعمل والعمال ،

ونموذج يهتم بإظهار الناحية الاجتماعية والثقافية في الدولة القومية العتيدة.

ان الحزب دون هذه المؤسسات المحلية في المتحدات الصغرى والمتوسطة والكبيرة التي تتألف منها كيانات الأمة كافة هو رأس دون جسم، قيادة دون قاعدة، دولة دون شعب. تأطير شعب الأمة من خلال تأطير مواطني المتحدات في آليات عمل مؤسسة على المحاور الاقتصادية الاجتماعية الثقافية هو ربط للقوميين، وللمواطنين كافة من خلالهم، بالحزب؛ يعني ربط الشعب بالدولة. حينها يمكن الكلام عن الحزب الذي هو دولة الأمة المصغرة. لذلك فإن القول إن الحزب السوري القومي الاجتماعي لم يكن له وجود فعلي طوال سنوات، وتحديدا منذ استشهاد سعادة، ليس قولا اعتباطيا ولا تعسفيا؛ انه قول مؤسس على أن الحزب كما أراده سعاده في محاضراته وخطبه وجميع ما كتب هو دولة الأمة المصغرة، وهذا أيضا بحسب دستور الحزب.

إذا، الحزب كما أراده سعاده لم يتحقق. وما تحقق هو مشروع مبتسر لتنظيم عانى من عيوب بنيوية أساسية منذ بداياته. هذه العيوب ذاتها هي ما أدت للفاعلية الناقصة أو للّافاعلية التي وسمت الحزب طوال هذه السنوات. وما ثبت في التاريخ من منارات مضيئة أو ما بقى في أذهان وضمائر الناس، ورغم كل السلبيات، هي انتصار للحزب ضمن صفوفه على آفات الطائفية والمذهبية والعشائرية وكثير غيرها من أمراض وسمت وتسم مجتمعاتنا، يضاف إليها العديد من البطولات التي سجلها القوميون، وهذا ليس بالشيء القليل.
وما الحديث بعدها عن انحرافات أو تشوهات أو علل شابت الأداء الحزبي عموما الا من قبيل الكلام الاستطرادي عما يصيب الأجسام التي تعاني من خلل بنيوي اساسي؛ بالإضافة، وبنتيجة هذا الخلل ربما، إلى الابتعاد عن المناقبية القومية الاجتماعية التي أولاها سعادة حيزاً هاماً في تأسيسه النهضة. ثم ان عدم تحقيق "الحزب" انتصاراً فعليا راسخا في المجتمع أدى إلى تآكل بنيته التي تعاني اصلا من خلل جوهري. وهذا يبدو جليا في تشرذم الحزب وتشتت الاتباع والحيرة التي تلف الغالبية العظمى من القوميين الذين يتخبطون في مذاهب نظرية شتى تتعلق بماهية المخرج أو المخارج لحالتهم الراهنة، وربما قادتهم حيرتهم إلى الأمر المشكو منه، اي خيار الانشقاق الذي يؤدي إلى مزيد من التشرذم.
السؤال المطروح بإلحاح على القوميين في هذه المرحلة من مسيرة "الحزب" بجميع تفرعاته التنظيمية: *ما هو المخرج للوضع الراهن؟* هل نكتفي بالنقد والاعتراض دون آلية حقيقية تحاول التأسيس لبناء حزبي مختلف يأخذ بالاعتبار الخلل البنيوي في جسم "التنظيم" بهدف سد الثغرات التي أدت إلى الخلل؟ هذا السؤال هو وجودي ومصيري لأن استمرار التنظيمات المختلفة التي تعلن أنها الحزب السوري القومي الاجتماعي تؤدي ليس فقط الى مزيد من الضمور والتراجع لدور الحزب بل إلى خطر فعلي على استمراره

بسبب الارتفاع الملحوظ في المعدل العمري لأعضائه.